يسوع المعلِّم الإلهي

الأب نجيب ابراهيم الفرنسيسكاني

«أيقونة المسيح الكلّي القدرة».
يسوع يبارك بيمينه ويحمل الإنجيل بيساره
من أقدم الأيقونات (القرن السابع)
محفوظة في دير القدّيسة كاترينا في سينا.

المسيح بالنسبة لبولس الرسول هو الذي «أُسلم إلى الموت من أجل زلاّتنا وأُقيم من أجل برّنا» (روما ٤ : ٢٥). فالإنجيل في رسائل بولس هو البشرى السارّة بالمسيح الذي مات وقام من بين الأموات ليخلّصنا. يبدو أنّ مرقس الإنجيليّ لا يختلف كثيراً عن مضمون البشارة حسب بولس، رغم الكثير من تعليم يسوع في إنجيله. متى يكتب بعد بولس ومرقس ليُظهر أنّ تعليم يسوع التاريخي هو في صلب البشارة، ولا يمكن للمسيحي أن يتبع يسوع دون التتلمذ له والإصغاء إلى تعليمه.

يظهر القائم من بين الأموات للتلاميذ على الجبل، مكان الوحي حسب متى، فيشدّد إيمانهم ليس من خلال الأكل معهم كما في لوقا (٢٤ : ٤١- ٤٣) أو بإظهار مكان المسمارين في يديه وجنبه المطعون لتوما الرسول، كما في يوحنا (٢٠ : ٢٤ - ٢٩). أو بظهور آخر يبدّد الشكوك، كما في مرقس (١٦ : ١٤ - ٢٠)، بل فقط بكلمة منه : «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلّموهم أن يحفظوا كلّ ما أوصيتكم به، وهاءنذا معكم طوال الأيّام إلى نهاية العالم» (متى ٢٨ : ١٩ - ٢٠).

أن يكون الإنسان مسيحياً يعني قبل كلّ شيء، حسب متى، أن يصبح تلميذاً له من خلال حفظ كلّ وصاياه، أي تعليم يسوع كما ينقله الإنجيل. تعبّر الوصايا عن إرادة الله المُعلن عنها في الشريعة وفي الأنبياء، ولكن حسب تفسير يسوع لها، هو الذي علّم بسلطة إلهية.

ولكن كيف مارس يسوع رسالة التعليم حسب الأناجيل؟

١-يسوع المعلّم في الأناجيل

هكذا يخبر عنه مرقس ومتى ولوقا، إذ كان يمارس التعليم في المجامع وبهذا يشبه المعلّمين لدى الشعب. بعد اعتماد يسوع وصومه في البريّة رجع يسوع إلى الجليل «وكان يعلّم في مجامعهم»، يقول لوقا قبل سرد رواية يسوع في مجمع الناصرة (٤ : ١٥). هذا مثال عن رسالة يسوع العلنية.

في إنجيل مرقس، يبدأ يسوع رسالته في مجمع كفرناحوم بآيات الشفاء والتعليم، دون أن يذكر تفاصيل هذا التعليم، ولكنّه ينوّه عن تعليم مختلف قائلاً: «فأُعجبوا بتعليمه، لأنّه كان يعلّمهم كمن له سلطان، لا مثل الكتبة» (١ : ٢٢).

رغم إظهار هذا الدور الأساسي في رسالة يسوع العلنية، وتمييزه عن المعلّم في ذلك الوقت حسب الأناجيل الأربعة، يعطي متى صورة خاصة عن يسوع المعلّم، تبيّن قصده في البشارة.

٢- يسوع المعلّم في متى

بعد اختيار التلاميذ الأربعة الأوائل يقول متى: «وكان يسير في الجليل كلّه، يعلّم في مجامعهم ويعلن بشارة الملكوت، ويشفي الشعب من كلّ مرض وعلّة» (٤ : ٢٣). يربط متى التعليم بإعلان البشارة، واصفاً إيّاه بعبارة "إنجيل الملكوت". لا يقتصر الإنجيل على البشرى السّارة الأولى: موت يسوع وقيامته، كما في بولس وإلى حدّ ما في مرقس، بل يخصّ شخص يسوع الذي به يحلّ ملكوت الله، وتعليمه كما يظهر في الإنجيل.

لذلك نرى يسوع في بداية رسالته يلقي عظة طويلة على الجبل، وكأنّي بالإنجيلي متى يريد تقديم صورة معينة عن يسوع: إنّه المعلّم الوحيد الذي يلقي على تلاميذه تعليماً عن شروط اتّباعه ليصبح الإنسان تلميذ ملكوت الله: «فلما رأى الجموع، صعد الجبل وجلس، فدنا إليه تلاميذه فشرع يعلّمهم» (متى ٥ : ١ – ٢).

في بداية عظة يسوع الكبرى (متى ٥ – ٧)، يقول متى أنّ تعليمه كان موجّها إلى التلاميذ. ولكن أي تلاميذ؟ يسبق هذه العظة دعوة التلاميذ الأربعة الأوائل: سمعان بطرس وأندراوس أخوه، يعقوب بن زبدي ويوحنا أخوه (متى ٤ : ١٨ – ٢١). وينهي متى عظة يسوع قائلاً: «ولمّا أتمّ يسوع هذا الكلام، أُعجبت الجموع بتعليمه، لأنّه كان يعلّمهم كمن له سلطان، لا مثل كتبتهم» (متى ٧ : ٢٨ – ٢٩). ممّا يدلّ أنّ هذا التعليم لا يتعلّق فقط بالتلميذ الأول ولا هو تعليم للمبتدئين باتبّاع يسوع، بل هو موجّه لكلّ تلميذ ليسوع، لكلّ قارئ مؤمن به، وخاصّة للذين تقدّموا في الحياة المسيحية، لتربطهم بيسوع علاقة التلميذ بمعلّمه.

هذه هي الصورة التي يقدّمها متى لنا في إنجيله: يسوع المعلّم الإلهي.

«لأَنَّهُ كانَ يُعَلِّمُهُم كَمَن لَهُ سُلْطان» (متى ٧ : ٢٩)

٣- كيف ينادي التلاميذ يسوع؟

بالنسبة لمرقس، ينادي التلاميذ يسوع قائلين: "يا معلّم". في حادث تسكين العاصفة يقول التلاميذ الخائفين ليسوع: «يا مُعَلِّم، أَما تُبالي أَنَّنا نَهلِك ؟» (مرقس ٤ : ٣٨). وعلى جبل التجلّي يقول بطرس ليسوع: «رابّي، حَسَنٌ أَن نَكونَ هٰهُنا. فلَو نَصَبْنا ثَلاثَ خِيَم، واحِدَةً لَكَ، وواحِدةً لِموسى، وواحِدَةً لإِيلِيّا» (مرقس ٩ : ٥). بالمقابل ينادي التلاميذ يسوعَ، حسب إنجيل متى، وفي نفس الروايات، قائلين: «يا رَبّ، نَجِّنا، لَقَد هَلَكنا» (متى ٨ : ٢٥)، «يا ربّ، حَسَنٌ أَن نكونَ هٰهُنا. فإِن شِئتَ، نَصَبْتُ هٰهُنا ثَلاثَ خِيَم: واحِدَةً لكَ وواحِدَةً لِموسى وواحِدَةً لإِيلِيّا» (متى ١٧ : ٤). فالطريقة المناسبة التي بها ينادي التلميذ يسوع، حسب متى، هي "يا ربّ"، بينما يستعمل لقب "معلّم" أولئك الذين لا يتبعون يسوع عن قرب، مثل الكاتب الذي سأل يسوع قائلاً: «يا مُعَلِّم، أَتبَعُكَ حَيثُ تَمضي» (متى ٨ : ١٩)، والشاب الغني: «يا مُعلِّم، ماذا أَعمَلُ مِن صالِح لأَنالَ الحَياةَ الأَبَدِيَّة» (متى ١٩ : ١٦). من بين التلاميذ، فقط يهوذا الخائن ينادي يسوع قائلاً: «السّلام عليك، رابّي (أي يا معلّم)» (متى ٢٦ : ٤٩).

يبدو إذن وكأنّ متى يخالف ولو ظاهرياً صورة يسوع المعلّم. يسوع، بالنسبة للتلميذ، هو الرب. ولكنّ خصوصية تعليم متى تظهر في نصّ ينفرد به.

٤- يسوع المعلّم الأوحد

«وكَلَّمَ يسوعُ الجُموعَ وتَلاميذَه قال: «إِنَّ الكَتَبَةَ و الفِرِّيسيِّينَ على كُرسِيِّ موسى جالِسون،

فَافعَلوا ما يَقولونَ لَكم واحفَظوه. ولكن أَفعالَهم لا تَفعَلوا، لأَنَّهم يَقولونَ ولا يَفعَلون: يَحزمونَ أَحمالاً ثَقيلَة ويُلقونَها على أَكتافِ النَّاسِ، ولَكِنَّهم يَأبَونَ تَحريكَها بطَرَفِ الإصبَع. وجَميعُ أَعمالِهم يَعمَلونَها لِيَنظُرَ النَّاسُ إِلَيهم: يُعَرِّضونَ عَصائبَهم ويُطَوِّلونَ أَهدابَهم ويُحِبُّونَ المَقعَدَ الأَوَّلَ في المَآدِب، وصُدورَ المَجالسِ في المَجامع، وتَلَقِّيَ التَّحيَّاتِ في السَّاحات، وأَن يَدعُوَهُمُ النَّاسُ "رابي". أَمَّا أَنتُم فَلا تَدَعوا أَحَداً يَدْعُوكم "رابي"، لأَنَّ لَكم مُعَلِّماً واحداً وأَنتُم جَميعاً إِخوة. ولا تَدَعوا أَحداً أَباً لَكم في الأَرض، لأَنَّ لَكم أَبًا واحداً هو الآبُ السَّماويّ. ولا تَدَعوا أَحَداً يَدْعُوكم مُرشداً، لأَن لَكم مُرشِداً واحداً وهو المسيح. وَلْيَكُنْ أَكبَرُكُم خادِماً لَكم. فمَن رَفَعَ نَفسَه وُضِع، ومن وَضَع نَفسَه رُفِع» (٢٣ : ١ - ١٢).

«دير حبس المسيح»
و«معهد العلوم الكتابيّة والأثرية في القدس»

يتوجّه يسوع بكلامه إلى الجموع والتلاميذ، محذّراً من أسلوب الكتبة والفريسيين، وهذا ما نجده في إنجيل مرقس (١٢ : ٣٨ - ٤٠)، الذي لا يذكر الجلوس على كرسيّ موسى ولا تنبيه يسوع حول من هو المعلّم في جماعة المؤمنين. ينفرد إذن الإنجيليّ متى بقول يسوع حول المعلّم الأوحد.

يأتي هذا القول في سياق تحذير يسوع من الذين يجلسون على كرسيّ موسى ويحبّون أن يدعوهم الناس "رابّي"، يا معلّم. نذكر أنّ الفريسيين والكتبة صاروا رؤساء الشعب بعد خراب الهيكل، سنة ٧٠ م. لم يعد هناك الهيكل، لذلك صارت الشريعة ومن يعلّمها في مركز حياة اليهود. حرفياً تعني كلمة "رابّ" كبير، وهو لقب احترام وتكبير للشخص. لذلك يطلب يسوع من تلاميذه أن لا يقبلوا هذا اللقب لشخصهم، لأنّ المسيح هو المعلّم الوحيد لهم.

٥- هل هذا ينفي خدمة التعليم في الكنيسة؟

خلال رسالته العلنية، كان يسوع المعلّم الأوحد والتعليم له وحده. ولكن رسالة التعليم تستمرّ في الكنيسة بالاتحاد بالمعلّم الأوحد والتعليم ليس سوى رجوع إليه وإلى تعليمه بمساعدة الروح القدس.

ينفرد متى بذكر التعليم كرسالة في الجماعة: «إِنِّي أُوليتُ كُلَّ سُلطانٍ في السَّماءِ والأَرض.

فاذهَبوا وتَلمِذوا جَميعَ الأُمَم، وعَمِّدوهم باسْمِ الآبِ والابْنِ والرُّوحَ القُدُس، وعَلِّموهم أَن يَحفَظوا كُلَّ ما أَوصَيتُكُم به، وهاءنذا معَكم طَوالَ الأَيَّامِ إلى نِهايةِ العالَم».

أما أعمال الرسل فيصف تبشير الرسل وبولس بالتعليم:

«وبَينَما بُطرُسُ ويوحَنَّا يُخاطِبانِ الشَّعْب، أقبَلَ إليهما الكَهَنَةُ وقائدُ حَرَسِ الهَيكَلِ والصَّدُّوقِيُّون، وهُم مُغتاظونَ لأَنَّهما كانا يُعَلِّمانِ الشَّعْبَ ويُبَشِّرانِ في الكَلامِ على يَسوعَ بِقِيامَةِ الأَموات» (٤: ٢).

« فمَضى [برنابا] إلى طَرَسُوسَ يَبحَثُ عن شاوُل، فلَمَّا وَجَدَه جاءَ به إلى أَنطاكية، فأَقاما سَنةً كاملةً يَعمَلانِ مَعًا في هذِه الكَنيسَة وُيعَلِّمانِ خَلقًا كثيرًا. وفي أَنطاكِيةَ سُمِّيَ التَّلاميذُ أَوَّلَ مَرَّةٍ مَسيحِيِّين» (١١: ٢٥-٢٦).

أما موضوع التعليم فهو يسوع المسيح، البشرى السّارة: «وكانوا لا يَنفكُّونَ كُّل يَومٍ في الهَيكلِ وفي البُيوت يُعلِّمونَ ويُبَشِّرونَ بأَنَّ يسوعَ هو المسيح» (٥: ٤٢).

وباسمه يعلّم المعلّمون، كما يؤكّد خصوم الرسل، عظيم الكهنة وأعضاء المجلس: «نَهَيْناكم أَشَدَّ النَّهْيِ عنِ التَّعليم بهذا الاسْم وها قد مَلأْتُم أُورَشَليمَ بتَعليمِكم، وتُريدونَ أَن تَجعَلوا علَينا دمَ هذا الرَّجُلَ» (٥: ٢٨).

في رسائل بولس نجد فعل التعليم في الكنيسة: «أَمَّا أَنتُم فما هكذا تَعلَّمتُمُ المسيح، إذا كُنتُم أُخبرتُم به وفيه تَلقَّيتُم تَعْليمًا مُوافقًا للحَقيقَة الَّتي في يسوع، أَي أَن تُقلعوا عن سيرَتِكمُ الأُولى فتَخلَعوا الإنسانَ القَديمَ الَّذي تُفسِدُه الشَّهَواتُ الخادعة، وأَن تَتجدَّدوا بتَجَدُّدِ أَذهانِكمُ الرُّوحِيّ فتَلبَسوا الإنسانَ الجَديدَ الَّذي خُلِقَ على صُورةِ اللهِ في البِرِّ وقَداسةِ الحَقّ» (أفسس ٤: ٢٠ - ٢٤ وراجع قولسي ٢: ٦ - ٧).

التعليم في صلب رسالة بولس الرسول، معلّم الوثنيين: «فإِنَّه [الله] يُريدُ أَن يَخْلُصَ جَميعُ النَّاس ويَبلُغوا إلى مَعرِفَة الحَقّ، لأَنَّ اللهَ واحد، والوَسيطَ بَينَ اللهِ والنَّاسِ واحد، وهو إِنْسان، أَي المسيحُ يسوعُ الَّذي جادَ بنَفْسه فدًى لجَميع النَّاس. تلكَ شَهادةٌ أُدِّيَت في الأَوقاتِ المُحَدَّدَة لَها وأُقمتُ أَنا لَها داعيًا ورَسولاً ـ أَقولُ الحَقَّ ولا أَكـذِب ـ مُعَلِّمًا للوَثَنِيِّينَ فـي الإيمانِ والحَقّ. (١ طيموتاوس ٢: ٤ - ٧). (راجع ٢ طيم ١: ١١).

في الكنيسة الأولى كانت هبة التعليم إلى حانب المواهب الأخرى لبناء الكنيسة، والقدّيس بولس يذكرها في المرتبة الثالثة بعد الرسل والأنبياء: «والَّذينَ أَقامَهمُ اللهُ في الكَنيسةِ همُ الرُّسُلُ أَوَّلا والأَنبياءُ ثانيًا والمُعلِّمون ثالثًا، ثُمَّ هُناكَ المُعجزات، ثُمَّ مَواهبُ الشِّفاءَ والإسعافِ وحُسْنِ الإدارةِ والتَّكَلُّم بلُغات» (١ قورنتس ١٢: ٢٨). كما تكثر الأمثلة في العهد الجديد عن خدمة التعليم في الكنيسة: راجع أفسس ٤: ١١؛ روما ١٢: ٧؛ ١قورنتس ١٤: ٦ و٢٦). والتعليم هو من المهمّات

الأساسية لدى رئيس الجماعة، أي الأسقف، كما يقول بولس الرسول لتلميذه طيموتاوس: «علّم هذا وعظ به» (١طيم ٦ : ٢).

في كلّ هذه النصوص نرى أنّ التعليم رسالة أساسية في الكنيسة، ولكنّ المعلّم يعمل باسم يسوع وجوهر تعليمه هو يسوع المسيح، أقواله وأعماله وأسرار حياته الخلاصية، بالإضافة إلى تفسير العهد القديم تفسيراً مسيحياً. لذلك يبقى يسوع المعلّم الوحيد في الجماعة، كما يقول متى في بشارته.

تحتاج الكنيسة إلى تعليم يسوع، هو القائل: «السّماء والأرض تزولان، وكلامي لن يزول» (متى ٢٤ : ٣٥). كما تظهر قامة يسوع الكبرى في التعليم عندما قال: «سمعتم أنّه قيل للأولّين لا تقتل، فإنّ من يقتل يستوجب حكم القضاء، أمّا أنا فأقول لكم: من غضب على أخيه استوجب حكم القضاء...» (متى ٥ : ٢١- ٢٢).

بهذا يظهر يسوع سرّ شخصه في التعليم، إذ يبيّن من جهة أنّه لم يأتِ ليبطل الشريعة أو الأنبياء ومن جهة أخرى يعلّم بسلطة إلهية لتتميم الشريعة، أي لتصل إلى كمالها في تعليمه.

٦- يسوع موسى الجديد

في رواية طفولة يسوع، نجد ما يوازي سيرة موسى في سفر الخروج. بعد هروب العائلة المقدّسة إلى مصر، يقول متى: «ليتمّ ما قال الرّبّ على لسان النبيّ: من مصر دعوت ابني» (٢ : ١٥) لا بدّ لنبوءة هوشع (١١ : ١) في هذا السياق أن تربط الحدث بسفر الخروج وبدور موسى قائد الشعب إلى أرض الميعاد. يلي ذلك رواية قتل هيرودس أطفال بيت لحم مثل ما فعل فرعون مصر بأطفال العبرانيين (خروج ١). كما ينوّه أهل الإختصاص بكثير من التشابه بين متى ١ - ٢ وسيرة موسى حسب التأوين اليهودي لسفر الخروج.

يذكّر صوم يسوع أربعين يوماً وأربعين ليلةً ليس فقط بإقامة الشعب أربعين سنة في البريّة وحسب، بل بإقامة موسى على الجبل طيلة نفس المدّة من الزمن: «فدخل موسى في وسط الغمام وصعد الجبل. وأقام موسى في الجبل أربعين يوماً وأربعين ليلةً» (خروج ٢٤ : ١٨؛ راجع تثنية ٩ : ٩). أمّا تجربة رؤية ممالك الأرض كلّها فتستحضر رؤية موسى لأرض الميعاد على جبل نيبو (تثنية ٣٤: ١ -٤).

لا بدّ أن نستذكر موسى على جبل سيناء عندما نقرأ عظة يسوع على الجبل، مع ملاحظة العظة المقابلة لها من مكان منبسط حسب لوقا ٦ : ١٧. يقول متى: «صعد الجبل وجلس، فدنا إليه تلاميذه فشرع يعلّمهم» (٥ : ١ - ٢). يقصد متى من خلال صعود يسوع على الجبل وجلوسه وتعليمه التنويه بأنّه موسى الجديد الذي لا يؤكّد قيمة الشريعة وحسب بل يفسّرها تفسيراً جديداً

يعبّر عن سلطته الإلهية.

تستعيد بعض عجائب يسوع ما فعله الله عن يد موسى في بريّة سيناء، مثال ذلك آية تكثير الخبز التي تذكّر بالمنّ الذي أكله الشعب خلال مسيرة الخروج (متى ١٤ : ١٣ – ٢١).

لا يقصد متى بالطبع تصوير يسوع وكأنّه نبيّ ومشرّع وصانع عجائب مثل موسى، بل تقديمه من خلال هذه الشخصية الأساسية لدى شعب العهد القديم على أنّه أعظم من موسى، الذي لم يكن سوى سابق له، هو الذي أعطى ملء الوحي بتعليمه وبأعماله. من الجدير بالذكر أنّ متى يكتب إلى جماعة مسيحية من أصول يهودية.

«السَّماءُ وَالأَرْضُ تزولانِ، وَكلامي لَنْ يَزولْ» (متى ٢٤ : ٣٥)

خاتمة

يعطي متى معنى مسيحانياً جديداً للقب "معلّم". خلافاً للتقليد اليهودي، يسوع ليس مجرّد معلّم للشريعة، إنّه الرّب الذي يكشف عن أسرار الملكوت ويفسّر بسلطة إلهيّة أحكام الشريعة. لذلك لا يسع الكنيسة سوى أن «تؤمن بأنّ مفتاح تاريخ البشر، ومركزه، وغايته هي في ربّها ومعلّمها» (تعليم الكنيسة ٤٥١).

حسب إنجيل متى، ينادي التلميذ يسوع قائلاً: «يا ربّ»، لأنّه المعلّم الإلهي. لا بل على التلميذ أن يجد وصايا الله في شخص معلّمه يسوع الذي هو تحقيقها الكامل (تعليم الكنيسة ٢٠٥٣).

يقتضي الإيمان بالمسيح الاعتراف به معلّما واحداً في الكنيسة. منه تصدر كلّ سلطة تعليمية في الكنيسة، حتى إنّه لا يجوز للذي يحمل مسؤولية التعليم سوى العودة إليه والاستمرار في حال التلمذة له. علاقة كلّ مسيحيّ مع يسوع هي علاقة التلميذ بالمعلّم الإلهيّ الذي يدرّب تابعيه على تحقيق إرادة الله من خلال الطاعة للإنجيل.

فاللقاء مع المسيح الحيّ في الكنيسة لا يتمّ إلا من خلال الإصغاء لتعليم يسوع عندما كان على الأرض، والتتلمذ له. ما قاله يسوع في رسالته العلنية هو موضوع التعليم في الكنيسة إلى نهاية العالم.